الفصل الخامس: مكانة علم العلل بين علوم الحديث

قال الحاكم في المعرفة (١١٢): هو علم برأسه غير الصحيح والسقيم والجرح والتعديل. اهـ.

وقال الخطيب في الجامع (٢/ ٢٩٤): فإن معرفة العلل أجل أنواع علم الحديث.

يحظى علم العلل عند المحدثين بأهمية خاصة ومكانة متميزة بين سائر علوم الحديث، ظل معروفا ومتميزا بها منذ البدايات الأولى للاهتمام بدراسة الأسانيد ونقد الرجال.

ويمكن إبراز هذه المكانة المرموقة التي خص بها من خلال عدة ملاحظات:

ـ الملاحظة الأولى:

إن علم العلل هو رأس علوم الحديث وأشرفها لأسباب كثيرة سنذكرها في هذا الفصل، وتقدم كثير منها في الفصل السابق.

قال ابن الصلاح في مقدمته (١١٤)، اعلم أن معرفة علل الحديث من أجل علوم الحديث وأدقها وأشرفها.

وقال الحاكم في المعرفة (١١٩): فإن معرفة علل الحديث من أجل هذه العلوم.

وقال الخطيب في الجامع (٢/ ٢٩٤): فإن معرفة العلل أجل أنواع علم الحديث.

وقال أحمد شاكر في حاشيته على ألفية السيوطي (٥٦): وهذا الفن من أدق فنون الحديث وأعوصها، بل هو رأس علومه وأشرفها.

وقال ابن تيمية في الفتاوى (١٨/ ٧٣).: وهذا من أجل فنون العلم بالحديث

يسمى علم علل الحديث.

وقال فيها أيضا (١٣/ ٣٥٢-٣٥٣): وكما أنهم يستشهدون ويعتبرون بحديث الذي فيه سوء حفظ، فإنهم أيضا يضعفون من حديث الثقة الصدوق الضابط أشياء تبين لهم أنه غلط فيها بأمور يستدلون بها، ويسمون هذا علم علل الحديث، وهو من أشرف علومهم بحيث يكون الحديث قد رواه ثقة ضابط، وغلط فيه.

- الملاحظة الثانية:

إن علم العلل أدق علوم الحديث وأغمضها وأوعرها مسلكا، كما تقدم في المبحث السالف الذكر.

قال الحافظ في النكت (٢٩٥): وهذا الفن أغمض أنواع الحديث وأدقها مسلكا.

وقال في النزهة (١٢٣): وهو من أغمض أنواع علوم الحديث وأدقها.

وقال الألباني في الإرواء (٦/ ٥٧): إن ابن حزم نظر إلى ظاهر السند فصححه، وذلك مما يتناسب مع ظاهريته، أما أهل العلم والنقد فلا يكتفون بذلك، بل يتبعون الطرق ويدرسون أحوال الرواة، وبذلك يتمكنون من معرفة ما إذا كان في الحديث علة أو لا، ولذلك كان معرفة علل الحديث من أدق علوم الحديث، إن لم يكن أدقها إطلاقا. اهـ

قلت: ودقة مباحثه وخفاؤها تجعل له ميزة خاصة بخلاف غيره من العلوم التي تكفي فيها الملاحظة العابرة الظاهرية، ومن جهة أخرى فهي تضاعف من جهود المحدث، وتجعل مهمته في الكشف عن علل الحديث في غاية الصعوبة والعسر، وتستوجب منه دقة الملاحظة ورهافة الحسن وتتبع تام للروايات والطرق وتفحص الرواة واطلاع شامل على مراتبهم وأحوالهم.

- الملاحظة الثالثة:

إنه بخلاف غيره من العلوم التي يتكلم فيها كل محدث، فهو لا يتكلم فيه إلا جهابذة

الفن والمبرزون في الحفظ والنقد، الذين أفنوا أعمارهم في دراسة المتون والأسانيد وتتبع الطرق وتمييز مراتب الرواة وأحوالهم وظروفهم ومستوى ضبطهم وحفظهم، وكيفية تلقيهم وسماعهم لمروياتهم، وقلة وكثرة ملازمتهم لشيوخهم، وممارستهم لحديثهم، مما كون لديهم حاسة خاصة في نقد الأحاديث وهيأة نفسانية لا يعبر عنها بعبارة.

ولهذا لم يتكلم فيه إلا القليل من أئمة هذا الشان.

قال الحافظ في النكت (٢٩٥): وهذا الفن أغمض أنواع الحديث وأدقها مسلكا، ولا يقوم به إلا من منحه الله تعالى فهما غايصا واطلاعا حاويا وإدراكا لمراتب الرواة ومعرفة ثاقبة، ولهذا لم يتكلم فيه إلا أفراد أئمة هذا الشأن وحذاقهم، وإليهم المرجع في ذلك لما جعل الله فيهم من معرفة ذلك والاطلاع على غوامضه دون غيرهم ممن لم يمارس ذلك.

وقال الحافظ كذلك في نزهة النظر (١٢٣): وهو من أغمض أنواع علوم الحديث وأدقها، ولا يقوم به إلا من رزقه الله تعالى فهما ثاقبا وحفظا واسعا ومعرفة تامة بمراتب الرواة وملكة قوية بالأسانيد والمتون، ولهذا لم يتكلم فيه إلا القليل من أهل هذا الشأن كعلي بن المديني وأحمد بن حنبل والبخاري ويعقوب بن شيبة وأبي حاتم وأبي زرعة والدارقطني.

وقال العلامة أحمد شاكر في حاشيته على ألفية السيوطي (٥٦): وهذا الفن من أدق فنون الحديث وأعوصها، بل هو رأس علومه وأشرفها، ولا يتمكن منه إلا أهل الحفظ والخبرة والفهم الثاقب، ولهذا لم يتكلم فيه إلا القليل كابن المديني وأحمد والبخاري ويعقوب بن شيبة وأبي حاتم وأبي زرعة والترمذي والدارقطني.

وقال ابن القيم بعد أن ذكر علة خفية: وهذا نوع غامض لا يتنبه له إلا الحذاق[1].

وقال ابن رجب في شرح العلل (٢٥٧): وقد ذكرنا في كتاب العلم أنه علم جليل قل من يعرفه من أهل هذا الشأن، وأن بساطه قد طوي منذ أزمان.

(١) فتح الباري (٨/ ٤٦٩)، لكن أجاب الحافظ بجواب فيه نظر، فانظره هناك.

وقال كذلك في شرح العلل (٤٨): وقد ذكرنا فيما تقدم في كتاب العلم شرف علم العلل وعزته وأن أهله المتحققين به أفراد يسيرة من بين الحفاظ وأهل الحديث، وقد قال أبو عبد الله بن مندة الحافظ: إنما خص الله بمعرفة هذه الأخبار نفرا يسيرا من كثير ممن يدعي علم الحديث.

وقال ابن رجب في شرح الأربعين النووية (٢/ ١٠٥): وبكل حال فالجهابذة النقاد العارفون بعلل الحديث أفراد قليل من أهل الحديث جدا.

وكان أبو زرعة في زمانه يقول: قل من يفهم هذا، وما أعزه، إذا دفعت هذا عن واحد أواثنين فما أقل من تجد من يحسن هذا.

ولما مات أبو زرعة، قال أبو حاتم: ذهب الذي كان يحسن هذا - يعني أبا زرعة - ما بقي بمصر ولا بالعراق واحد يحسن هذا، وقيل له بعد موت أبي زرعة: تعرف اليوم أحدا يعرف هذا؟ قال: لا اهـ كلام ابن رجب.

وقال أبو حاتم الرازي: الذي كان يعرف صحيح الحديث وسقيمه وعنده تمييز ذلك ويحسن علل الحديث: أحمد بن حنبل وعلي بن المديني ويحيى بن معين وبعدهم أبو زرعة، كان يحسن ذلك، قيل له: فغير هؤلاء تعرف اليوم أحدا، قال: لا[1].

وقال أبو حاتم أيضا: جرى بيني وبين أبي زرعة يوما تمييز الحديث ومعرفته، فجعل يذكر أحاديث ويذكر عللها، وكذلك كنت أذكر أحاديث خطأ وعللها وخطأ الشيوخ، فقال لي يا أبا حاتم قل من يفهم هذا، ما أعز هذا، إذا رفعت هذا من واحد واثنين فما أقل من تجد من يحسن هذا، وربما أشك في شيء أو يتخالجني شيء في حديث فإلى أن ألتقي معك لا أجد من يشفيني منه، قال أبي: وكذاك كان أمري..

إلى أن قال: ذهب الذي كان يحسن هذا يعني أبا زرعة، وما بقي بمصر ولا بالعراق أحد يحسن هذا، قلت محمد بن مسلم؟ قال: يفهم طرفا منه[2].

(١) شرح العلل (١٤٧-١٤٨).

(٢) الجرح والتعديل (١/ ٣٥٦) وتاريخ بغداد (٢/ ٧٦) والسير (١٣/ ٢٥٢).

وقال ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣١): غير أن هذا النسل قد قل في هذا الزمان فصار أعز من عنقاء مغرب.

وقال الحافظ العلائي في مقدمة الأحكام: وهذا الفن أغمض أنواع الحديث وأدقها مسلكا ولا يقوم به إلا من منحه الله فهما غايصا واطلاعا حاويا وإدراكا لمراتب الرواة ومعرفة ثاقبة، ولهذا لم يتكلم فيه إلا أفراد أئمة هذا الشأن وحذاقهم كابن المديني والبخاري وأبي زرعة وأبي حاتم وأمثالهم[١].

وقال الزركشي في الإجابة (٥٢) بعد أن ذكر علة خفية: هو نوع غامض لا يتنبه له إلا الحذاق.

ـ الملاحظة الرابعة:

إن علم العلل هو صاحب الكلمة النهائية والأخيرة في قبول الحديث ورده، فإذا كان مدار علوم الحديث جميعا وغايتها وهدفها تمييز الأحاديث المقبولة من المردودة، وسائر علومه خادمة لهذا الهدف وموصلة إليه كعلم الجرح والتعديل وأنواع الحديث المقبول والمردود، وعلم المتفق والمفترق والمؤتلف والمختلف. وكيفية التحمل وغيرها، فإن علم العلل تبقى له الكلمة الأخيرة والقول الفصل في قبول الحديث ورده دون سائر علوم الحديث.

فقد يكتشف المعلل بثاقب نظره ودقة ملاحظته إرسالا خفيا، أو دخول حديث في حديث، أو دمج موقوف في مرفوع، أو اشتباه راو بآخر، أو غير ذلك من العلل التي لا يمكن للمحدث المجرد التعرف عليها أو اكتشافها بمجرد ما عنده من قواعد.

فلا يسلم الحديث من الضعف ولا يحكم له بالقبول، ولو كان رجاله ثقاتا، وخاليا من الانقطاع الجلي، حتى يسلكه عالم العلل.

ـ الملاحظة الخامسة:

لا يسلم من نقد عالم العلل حتى كبار الحفاظ والمبرزون في الضبط والتثبت

(١) النكت على ابن الصلاح لابن حجر (٣٣١).

والإتقان، بخلاف أغلب علوم الحديث.

فلا يكفي عند عالم العلل أن يكون راوي الحديث ثقة حافظا، بل ولا في أعلى درجات التثبت والإتقان حتى يحكم لحديثه بالصحة، بل لابد من أن تسلم روايته من الوهم والغلط الذي لا ينفك عنه راو من الرواة.

ولهذا ترى أمثال أبي حاتم وأبي زرعة وأحمد والبخاري وغيرهم يوهمون كبار النقاد وجبال الحفظ، ومن تتبع كتب العلل رأى من ذلك ما لا يعد ولا يحصى.

فمثلا وهم أبو حاتم وأبو زرعة: مالكا[١]، وشعبة[٢].

ووهم أبو حاتم: الثوري[٣]، وعبد الرزاق[٤]، ووكيع بن الجراح[٥]، وابن المبارك[٦]، وسفيان بن عيينة[٧]، وأبا نعيم الفضل بن دكين[٨]، و الأوزاعي[٩]، وشعبة[١٠]، وحماد بن سلمة[١١].

ووهم أبو زرعة: أبا نعيم[١٢]، والفريابي[١٣]، والليث[١٤]، وأبا معاوية الضرير[١٥]،

(١) العلل لابن أبي حاتم (١/ ٢٣٩-٣٧٩).
(٢) نفسه (١/ ١٠٨-٢٧٤).
(٣) نفسه (١/ ٩٦).
(٤) نفسه (١/ ٣٠٣).
(٥) نفسه (١/ ٣٠٥).
(٦) نفسه (١/ ٨٠).
(٧) نفسه (١/ ٨٧-١٢٧-١٣٦-٤٠٣).
(٨) نفسه (١/ ١٤٤-٣٧٥-٣٩٦).
(٩) نفسه (٩/ ١٧٣).
(١٠) نفسه (١/ ٢٢٥).
(١١) نفسه (١/ ١١٥).
(١٢) نفسه (١/ ٥٨).
(١٣) نفسه (١/ ٥٦).
(١٤) نفسه (١/ ١٨٨).
(١٥) نفسه (١/ ١٨٦).

وغيرهم من جبال الحفظ وحفاظ الآثار.

ولهذا كم حديث صححه بعض أئمة الحديث تبين لغيرهم فيه الوهم[(١)].

- الملاحظة السابعة:

إن المحدث لا يمكنه أن يتكلم في علم العلل ويكون مبرزا فيه حتى يتقن سائر علوم الحديث إتقانا تاما ويستحضر مباحثها استحضارا عاليا.

فلابد له أن يتقن علم الجرح والتعديل ومناهج المحدثين في ذلك وتراجم الرواة، وأحوالهم ومشايخهم وتلامذتهم وطبقاتهم ومراتبهم وأسمائهم وألقابهم وكناهم، وما اتفق منها وافترق، وما ائتلف منها واختلف، وأقسام التحمل ومراتبه والمقبول منه والمردود، وأنواع الحديث المقبول والمردود، كالمدلس وأحكام التدليس وأنواعه، والمرسل ومباحثه، وهكذا.

وعليه فيمكن أن نقول: إن سائر علوم الحديث خادمة ومكملة لعلم العلل.

ثم رأيت همام سعيد يقول في العلل في الحديث (١٢٣): إن كل جزئية من جزئيات علوم الحديث داخلة في علم العلل، إما دخولا مباشرا أو غير مباشر، كخادم لأصول هذا العلم وضروراته.

ونقله تلميذه الوريكات في الوهم (١٠٢) مقرا له.

(١) قال في التلخيص الحبير (١/ ٥٣): ومشى ابن حزم على ظاهر الإسناد فصححه، وهو معلول بالانقطاع.
وقال الحافظ كذلك في الفتح (٥/ ١٦٨): وجرى الحاكم وابن حزم وابن القطان على ظاهر الإسناد فصححوه.
وقال السخاوي في فتح المغيث (١/ ٢٢٨-٢٢٩): وحينئذ فهو منقطع بخفاء الإرسال، وقد خفي ذلك على الضياء مع جلالته، وأخرج حديث هذه الترجمة في المختارة اعتمادا على ظاهر السند في الاتصال من جهة المواثرة، وكون أشعث وابن سيرين أخرج لهما مسلم.
وقال السخاوي في فتح المغيث (١/ ٢٢٧): على أن هذه العلة قد خفيت على مسلم حتى بينها له إمامه، وكذا اغتر غير واحد من الحفاظ بظاهر هذا الإسناد، وصححوا حديث ابن جريج.
وقال الحافظ في النكت (٣٣٣): ومشى أبو الحسن بن القطان الفاسي في بيان الوهم والإيهام على ظاهر الإسناد الأول فصحح الحديث فلم يصب.

ـ الملاحظة الثامنة :

إن علم العلل لا ينظر في الحديث من جهة ضعف الرواة وسوء حفظهم، وقلة ضبطهم، ولكن من جهة أخرى ليس للجرح فيها مدخل، كما قال الحاكم في المعرفة (١١٢ـ١١٣): وإنما يعلل الحديث من أوجه ليس للجرح فيها مدخل، فإن حديث المجروح ساقط واه، وعلة الحديث يكثر في أحاديث الثقات أن يحدثوا بحديث له علة فيخفى عليهم علمه فيصير الحديث معلولا، والحجة فيه عندنا الحفظ والفهم والمعرفة لا غير.

وقال ابن تيمية في الفتاوى (١٨/ ١٩): مع أن حذاق أهل الحديث يثبتون علة هذا الحديث من غير هذه الجهة، وأن راويه فلان غلط فيه لأمور يذكرونها، وهذا الذي يسمى معرفة علل الحديث بكون الحديث إسناده في الظاهر جيدا، ولكن عرف من طريق آخر أن راويه غلط فرفعه وهو موقوف أو أسنده وهو مرسل أو دخل عليه حديث في حديث، وهذا فن شريف.

وقال أيضا (١٨/ ٤٢): وقد يترك من حديث الثقة ما علم أنه أخطأ فيه، فيظن من لا خبرة له أن كل ما رواه ذلك الشخص يحتج به أصحاب الصحيح وليس الأمر كذلك، فإن معرفة علل الحديث علم شريف يعرفه أئمة الفن كيحيى بن سعيد القطان وعلي بن المديني وأحمد بن حنبل والبخاري صاحب الصحيح، والدارقطني وغيرهم، وهذه علوم يعرفها أصحابها.

وقال ابن رجب في الفتح (١/ ٣٦٣) بعد أن ذكر اتفاق أئمة الحديث على الإنكار على ابن إسحاق حديثه عن عبد الرحمان عن الأسود عن أبيه عن عائشة قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم ينام وهو جنب ولا يمس ماء: وأما الفقهاء المتأخرون فكثير منهم نظر إلى ثقة رجاله فظن صحته، وهؤلاء يظنون أن كل حديث رواه ثقة فهو صحيح ولا يتفطنون لدقائق علم علل الحديث ووافقهم طائفة من المحدثين المتأخرين كالطحاوي والحاكم والبيهقي.

ثم رأيت بعد هذا الدكتور هماما (٢٣) يزعم أن علم العلل أوسع من الجرح والتعديل.

ولا يسلم له سواء كان مراده العلل الخفية أو مطلق العلل، لأن علم الجرح والتعديل يهتم بأحوال الرجال من حيث العدالة والضبط، وأما علم العلل فيبحث في أوهام الثقات.

فكيف يجعل علم العلل أوسع من الجرح والتعديل، وبين المبحث تباين ظاهر، نعم بينهما علاقة تكامل، أما أن يقال أوسع فلا.

ثم رأيت تلميذه الوريكات يقول في الوهم (٧٣): ونخلص إلى أن مهمة علم العلل تبدأ من حيث انتهى علم الجرح والتعديل، فإذا حكم علم الجرح والتعديل على أحد الرواة بأنه ثقة، يبدأ علم العلل بمتابعة هذا الثقة ودراسة رواياته رواية رواية، ونظرا للبون الواضح بين علمي العلل والجرح والتعديل . . الخ.

فوافق ما ذكرت، والحمد لله رب العالمين.

ـ الملاحظة التاسعة:

إنه علم يعتمد على الممارسة العملية والتجربة الطويلة في البحث العملي، أكثر منه على قواعد نظرية مقررة مطردة، ولا مجموعة من الآليات، التي من حفظها وأعملها في نقده صار إماما فيه، كما هو الحال في باقي العلوم.

بل لابد للباحث فيه أن يطيل البحث في علوم الحديث، ويكثر من الاشتغال به ويجعله ديدنه الخاص في سائر الأوقات، ويفني عمره في بحث غوامضه، واستخراج كوامنه، ومطالعة كتب أئمة الفن وفرسان الحديث، حتى تفقه نفسه بلبابه، وتتمرس بحقائقه، فيصير له سجية راسخة، وطبيعة لازمة، وملكة دائمة، يختلط فيها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بدمه ولحمه، فيرد الحديث قبل البحث في رجاله، ويعله بمجرد سماعه، ويستنكره أو يستنكر بعض ألفاظه لشيء استرابه وأوجب توقفه، ولهذا

قال ابن مهدي رحمه الله: إنكارنا للحديث عند الجهال كهانة، كما تقدم.

ولعل هذا الذي ذكرنا هو ما عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه. رواه أحمد وابن سعد بسند حسن، وصححه ابن حبان وابن القطان[1].

وقال الربيع بن خثيم: إن من الحديث حديثا له ضوء كضوء النهار، نعرفه، وإن من الحديث حديثا له ظلمة كظلمة الليل ننكره، رواه الخطيب في الكفاية (٤٧١) والحاكم في المعرفة (٦٢) وابن عدي في الكامل (١/ ٥٥) والرامهرمزي في المحدث الفاصل (٤٣١) وابن سعد في الطبقات (٦/ ١٨٦).

(١) انظر الصحيحة رقم (٧٣٢).